

تقسيم بولندا الثاني الأسباب والدوافع

أ.د حسن عبد علي الطائي

جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية – قسم التاريخ

المقدمة

مرت أوروبا بحرب طاحنة خلال العصر الوسيط وشهد القرن السابع والثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر صراعات مستمرة وحروب قائمة على أساس نهب ممتلكات دولة من قبل دولة أخرى يعني هذا أم مبدأ القوة والجبروت كان هو السائد في أوروبا في تلك الحقبة ولما كانت بولندا إحدى الدول الأوروبية التي اشتركت في عدد كبير من الحروب فادى ذلك إلى ضعفها العسكري الأمر الذي جعلها نهياً للآخرين فقد سعت كاترين الثانية التي حكمت روسيا القيصرية بعد نيقولا الأول عام ١٧٥٢ تسعى جاهدة للاستحواذ على ما خلفت بولندا وقد تعاون كل من روسيا وبروسيا والنمسا لتقسيم بولندا وحسب ما سيذكر في متن البحث.

من هذا الفهم شرعت بالبحث معتمداً على عدد من المصادر جاء من أبرزها كتاب تاريخ أوروبا لفشر وكتاب محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا المعاصر وعلي حيدر سليمان في كتابه تاريخ الحضارة الأوروبية، ومصادر أخرى سترد مفصلة في متن البحث.

وقد قسمت بحثي إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول تضمن الأوضاع السياسية في الدول الأربعة (روسيا- بروسيا- النمسا- بولندا) والمبحث الثاني ضمنته تقسم بولندا الأول ١٧٧٢ والمبحث الثالث تضمن تقسيم بولندا الثاني ١٧٩٣ ونتفا من التقسيم الثالث.

أملا من خلال ما سأدون أن أوفق في رصد المعلومة من مصادرها ولله ولي التوفيق.

التمهيد

لقد حاول فريدريك الثاني أبان السنوات التالية لحرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣) أن يعوض خسائره على حساب مملكة مجاورة وهي بولندا التي كانت تشغل أراضي متسعة ولكنها كانت خاضعة اجتماعياً وسياسياً لطبقة أرستقراطية جعلت حكومتها أضعف الحكومات الأوروبية لذلك اقترحت بروسيا أن تحسم المنازعات القائمة بينها وبين روسيا والنمسا بالاشتراك جميعاً في أقسام هذه البلاد المنقسمة على نفسها إلا إن روسيا قاومت سياسة التقسيم في بداية الأمر التي تؤدي بطبيعة الأمر إلى تحديد دائرة نفوذها في بولندا لا يفيد إلا روسيا وحدها، لذا حاولت القيصرية كاترين الثانية أن تحول هؤلاء الطامعين إلى تركيا التي كانت تعتبرها نقطة سوداء على الخريطة المسيحية، ولكن تركيا كانت في حالة من القوة لا تسمح بتجزئتها بغير نضال^(١) ومن ثم تجدد الاهتمام بتقسيم بولندا التي تسد مطامع الطامعين بغير مقاومة منها ولا من الدول الأوروبية فقديمياً اقترحت انكلترا الحل البولندي لتسوية النزاع الأوروبي القائم على التوسيع كذلك فرنسا متأثرة بتعاليم القرن الثامن عشر لا تتعارض في تقسيم البلاد كان النفوذ الأكبر منه لرجال الدين^(٢).

(١) محمد قاسم، تاريخ أوروبا الحديث، مطبعة اللجنة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤، د.ط، ص ١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٦.

المبحث الأول الأوضاع السياسية

روسيا

لعل خوف روسيا القيصرية من أعضاء الجماعات اليهودية هو خوف العناصر الزراعية التقليدية من عنصر غريب له علاقات دولية واسعة في دولة جديدة لم تكن سلطتها قد تدعمت بعد (ولم تدعم لمدة طويلة نظراً لترامي أطراف البلاد ونظراً لأنه عنصر تجاري له مصالحه المالية الخاصة التي لا تتفق بالضرورة مع مصالح الدولة). كما إن هناك قوى اجتماعية داخل روسيا لم يكن في صالحها ألبته السماح لليهود بالاستقرار، من أهمها التجار الروس الذين كانوا يرزخون تحت عبء الضرائب والذين كان عليهم أن يدخلوا منافسة غير متكافئة مع بعض أعضاء طبقة النبلاء الذين اشتغلوا بالتجارة والذين كانوا يتمتعون بمزايا عديدة وبمساندة البيروقراطية الحكومية^(١) بل كان هؤلاء التجار يجدون أنفسهم (أحياناً) في منافسة مع الفلاحين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة والصناعات المنزلية، كل هذا داخل سوق محدودة مكبله بالقوانين الإقطاعية الاستبدادية التي لا حصر لها. وإذا أضفنا إلى هذا كله أن الحجم المالي للتجار الروس كان صغيراً في معظم الأحوال، لأدركنا سبب وقوف التجار الروس ضد دخول العنصر اليهودي التجاري النشط الذي لا تكبله القيم المسيحية أو القوانين الطبقية والذي يتحكم في رأسمال سائل لا باس به. ووجد هذا الموقف صدقاً في نفس حكومة كانت تكتسب شيئاً من شرعيتها باعتمادها الأرثوذكسية^(٢). ورغم أن الفكر الماركسالي وجد طريقه إلى روسيا في مرحلة لاحقة، إلا إن التجار استمروا في معارضة نشاط اليهود التجاري وفي مطابقة بالحد منه حتى اندلاع الثورة البلشفية. ومن الثوابت الأخرى التي كانت عنصراً قوياً ومحدداً في السياسة الروسية القيصرية أن اليهود كانوا يشكلون عنصراً متحركاً غير مستقر على رقعة أرض مقصورة عليهم، كما هو الحال الذي خلق لهم وضعاً خاصاً ومشاكل معينة^(٣).

روسيا في عهد كاترين الثانية

توفي بطرس الكبير ١٧٢٥ دون أن يعد إلى من يخلفه لأنه قتل أبنه، ولي العهد، في حياته خالفته إياه الرأي وتحديث ضغط حراس القصر أصبحت أرملته كاترينا قيصره روسيا لكن السلطة الحقيقية انتقلت إلى المجلس الأعلى المكون من رجال الدولة الكبار، واستمر لمجلس يمارس السلطة إلى حين وفاة كاترينا ف١٧٢٧، وكان بطرس الثاني ابن ولي العهد الكسيس وحفيد بطرس الكبير قاصراً ومات بالجذري قبل أن يتوج سنة ١٧٣٠ فاستدعى المجلس الأعلى بعض قريبات القصيرة زوجة بطرس وهما آن وإليزابيث اللتان حكمتا روسيا على التوالي وانتقلت السلطة الفعلية إلى المجلس الأعلى. لكن الحرس لم يقبل بذلك عندئذ انتهت الإمبراطورة الفرصة فوعدت الحراس بتحسين أحوالهم الاقتصادية وامتيازهم وألغت المجلس الأعلى واسترجعت سلطتها وقربت هذه العناصر الموالية لألماني ولما توفيت آن وبعد اضطرابات شبيهة بالاضطرابات التي حدثت بعد موت بطرس

(١) محمد مظفر الأدهمي، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، الجامعة المستنصرية، ص ١٧-١٨.

(٢) محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، كلية الآداب، جامعة بغداد، ص ٣٦٥.

(٣) ه.ل.ل. فشر، تاريخ أوروبا، ط٤، دار المعارف، مصر، ١٩٩٦، ج ٢، ص ٢٩٨.

الكبير ارتقت إليزابيث عرش روسيا في بداية عام ١٧٤٢ وكان النبلاء الروس يؤيدون اليايبيث فقربتهم وأبعدت النبلاء المياليين إلى ألمانيا^(١).

وشجعت الثقافة الفرنسية بدلاً من الثقافة الألمانية مع ذلك كانت الحضارة الغربية بثقافتها الانكليزية والفرنسية والألمانية سائدة في البلاط الروسي كانت كاترين الثانية أميرة ألمانية بروسستانية وقيل أنها كانت ابنة فردريك الكبير وقد رشحها فردريك الكبير لتتزوج بطرس الثالث قيصر روسيا. كانت كاترين الثانية ذكية استطاعت أن تكييف نفسها للمحيط الجديد فتعلمت الروسية وقربت الروس بدلاً من الألمان وأظهرت وطنية صادقة وتظاهرت بالارثوذكسية، وكان الناس توجهون إليها حتى في زمان زوجها بطرس الثالث لعرض مشاكلهم. ومن ناحية أخرى كانت كاترينا مع دهائها امرأة سيئة الخلق غير هيابة وبدون ضمير وحكمت روسيا بيد من حديد وأكملت أعمال بطرس الكبير^(٢).

السياسة الداخلية.

قامت كاترينا الثانية بتنظيم الحكومة والإدارة وتنظيم المقاطعات التي انقسمت إليها روسيا وجعلت الإدارة مركزية مرتبطة بنفسها عن طريق حكام المقاطعات الذين كانت هي تعينهم وقد استولت على أملاك الكنيسة وجعلتها ملكاً للدولة وأصبح رجال الدين تحت سيطرة الدولة.

لقد اعتبرت كاترين الثانية نفسها من المتأثرات بفلسفة الاستنارة السائدة في ذلك الوقت. وكانت من المستعيرات المستبدات. وراست فولتير وديدرو، ودعمتها إلى روسيا، وأسست المدارس والأكاديميات لتعليم الطبقة العليا الروسية وجعلت اللغة الفرنسية اللغة الدبلوماسية والمجتمع الراقي. وأرسلت شباب الطبقة الارستقراطية إلى انكلترا لمعرفة آخر التطورات العلمية والفنية وخاصة في الزراعة^(٣).

لم تكن كاترين من الذين تعطف على الفلاحين وتحسين أحوالهم ولم تحاول خلاصهم من الفقر والجهل وقالت بصراحة لأحد النبلاء أن تحسين أحوال الفلاحين وتعليمهم معناه انتهاء حكم القياصرة والنبلاء. وقد هدد النبلاء المتآمرين ضدها بمنح عدد كبير من سكان المدن شرف النبل عام ١٧٦٧، وأصبح النبلاء الجدد خدام أوفياء لكاترين، وقد قضت على ثورة الفلاحين بقيادة بكشاف الذي طالب بإلغاء القنانة في روسيا وأعدمت بكاشيف سنة ١٧٧٥ لقد أثرت هذه الشرارة على النبلاء. وأصحاب النبلاء فساندوا القصيرة ولم يعد النبلاء يعثرونها^(٤).

سياسة كاترين الخارجية:

أصبحت روسيا دولة أوربية عظيمة في عهد كاترينا الثانية. لقد تمكن بطرس الكبير أن يقضي على سيطرة السويد ويستولي على المقطعات السويدية شرقي بحر البلطيق، وبقيت بولنا(بولينيا) والدولة العثمانية في الغرب والجنوب يجب التخلص مهما كانت دولة بولندة دولة قومية مهمة منذ القرن السادس عشر. وكانت الدولة البولندية تشمل عناصر ثلاثة، بولونيين وليتوانيين واللاتفيين في كورلاند. وقد لعبت بولندة دوراً بارزاً في السياسة الأوربية في القرن السابع عشر ودافعت عن النمسا ضد الدولة العثمانية سنة ١٧٨٣ لكن بحلول القرن الثامن عشر بدأت عوامل الضعف تنخر في بولندة لقد كانت بولندة فقيرة اقتصادياً لا تستطيع تأسيس جيش دائم

(١) محمد محمد صالح مصدر سابق، ص ٤٤٤.

(٢) محمد محمد صالح مصدر سابق، ص ٤٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٧.

يواجه روسيا وبروسيا والنمسا، وكانت هناك عناصر أخرى روثينية في جنوب وألمانية في حوض البلطيق وقد مارست الحكومة البولندية نوعاً من التسامح الديني والعنصري لأن الروثينيين كانوا أرثوذكس والألمان بروتستانت. وقد طالبت العناصر المختلفة في بولندا بالمساواة وحقوق أكثر مما تمنحها الحكومة البولندية. ولما لم تنب مطالبهم استتجد الألمان بالروسين والأرثوذكس الروثينيين بالروس. وكان فردريك الكبير وكارترينا الثانية مستعدان لتلبية النداء.^(١)

ولقد كان الوضع السياسي الاجتماعي في بولندا سيئاً جداً، فقد أدت سيطرة السويد على البلطيق في نهاية القرن السابع عشر إلى ضائقة اقتصادية في بولندا. فقد انحطت الطبقة الوسطى وتقلصت ثروتهم وتدهورت المدن البولندية وبقيت الطبقة الأرستقراطية النبلاء وسحاب الأراضي تمارس سيطرة سياسية، وهم في نزاع مستمر فيما بينهم واضطهدوا الفلاحين ولهذا كانت بولندا في القرن الثامن عشر في فوضى سياسية واجتماعية واقتصادية، ولما كانت الملكية انتخابية في بولندا كان الملوك المنتخبين يمنحون امتيازات واسعة للابلاء قبل انتخابهم فأصبحت الملكية ضعيفة ورمزية، واغلب ملوك بولندا المتأخرين كانوا أجانب من الألمان السكسون الذين صرفوا أموالهم لتعزيز سكسونيا.^(٢)

وكان في الدستور البولندي اتفاق بين النبلاء سني لبير أم فيتو ينص على أن لا يسن قانون من قبل لبرلمان إذا وجد أحدهم أنه يعارض مصلحته ويرفضه، وقد أدى هذا القانون إلى نوع من الفوضى والبلبل كانوا يرفضون أي قانون يمس مصلحتهم فردياً واجتماعياً.

ولما توفي أغسطس الثالث ملك بولندا بعد انتهاء حرب السبع سنوات أخذت كاترين الثانية تتدخل في شؤون بولندا وبتهريب من فردريك الكبير اقنعت نبلاء بولندا بانتخاب بوليا توفسكي أحد المقربين من القصيرة ملكاً على بولندا سنة ١٧٦٤ باسم ستانيسلاوس الثاني ولما أصبح هذا ملكاً أصبح الروس مسيطرين على بولندا، ولما أراد البولنديون إصلاح دستورهم تدخل الروس وأجبرهم على نبذ الفكرة.

ولما نشبت ثورة لهذه الغاية تدخل الأجانب أرسلت كاترين جيشاً لإخمادها ولما عبر الجيش الروسي بعض أراضي الدولة العثمانية للوصول إلى بولندا نشبت الحرب بين الدولتين.^(٣)

بروسيا

نشأت بروسيا ونمت على يد أفراد عائلة هوهنزلرن، ففي أواخر القرن الخامس عشر امتلكت عشر هذه العائلة مقاطعة براندنبرك الواقعة حوالي مدينة برلين ولم تكن هذه المدينة حينذاك سوى قرية صغيرة. أما المقاطعات المسماة بروسيا فإنها تقع شرقي براندنبرك ولم تدخل تحت سيادة آل هونزلون إلا حوالي القرن السابع عشر.^(٤)

وفي القرن الثامن عشر رسخت الملكية المطلقة في بروسيا تحديداً في عهد فردريك الكبير واستطاع هذا أن يستخدم جيش والده وماله الوفير في أغراض شتى يعتبر فردريك أعظم ملوك تل هوهنزلرن كان شخصاً قصير القامة ذا عيين زرقاوين. أمتاز بركة الشعور في حياته ولهذا يعزى ولعه بالفنون والموسيقى والشعر والرقص وكانت تربيته على يد والده في غاية الشدة والعنف، وعندما تسلم العرش اظهر ميلاً شديداً إلى المجد والشهرة عن

(١) فشر، مصدر سابق، ص ٣٨٩.

(٢) محمد محمد صالح، مصدر سابق، ص ٤٤٨.

(٣) عبد المجيد نعني، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣-١٧٤٨م، بيروت-١٩٨١، ص ١٥٤.

(٤) إسماعيل ياغي-عبد الفتاح أبو عيلة، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الرياض-١٩٩٧، ص ٣٢٤.

طريق الحرب والفتوحات، وقد لقب بالمستبد العادل. وقد اتفق سنة ١٧٧٢ مع ماريّا تريزا والدّة ماريّا أنطوانيت إمبراطورة النمسا وكاترين الثانية قيصره روسيا على أقسام بولونيا فوسع بذلك وقعة مملكته.^(١)

ارتقاء فردريك الثاني المدعو بالكبير (١٧٤٠-١٧٨٦)

تلفت الملك الفتى حوله تلفت الأسد الجائع باحثاً عن فريسته فوجد أمامه امرأة جالسة على عرش عال تحكم مملكة واسعة الأرجاء. كانت هذه المرأة ماريّا تريزا ملكة النمسا التي جاءت إلى العرش بعد وفاة والدها الإمبراطور شارل السادس آخر حكام آل هابسبرك من الذكور.^(٢)

وقد سعى شارل هذا فاقنع الدول الأوروبية بالموافقة على وصيته التي ترك فيها عرش بلاده الواسعة لابنته ماريّا. ولكنه لم يغمض عينه حتى شرع جيرانه في رسم الخطط لاقتسام ملكة وكان أولهم وأشدهم خطراً ملك بروسيا الجديد، فأبدى لابنة الملك الراحل توددا وصداقة في أول الأمر. ثم انقض على سيليسيا من أملاكها دون أن يعلن حرباً ويقدم عذراً واضحاً. وكانت هذه المقاطعة الواقعة في الجنوب الشرقي من برنبرك تبلغ ثلثي مساحة مملكة فردريك اهتماماً عظيماً بإدارة المحاكم وتحقيق العدالة.^(٣)

وقد كره الأعمال الروتينية في المحاكم وتطبيق القانون. وفي إحدى القضايا طرد الحاكم على حكم على فقير حكماً جائراً وسجنه لمدة سنة وأجبره على دفع غرامة بنفسه إلى الشخص الذي صار ضحية جوره. وقد أشرف على جمع وتبسيط قوانين الملكية وأسس فردريك أكاديمية العلوم في برلين واهتم بالتقدم العلمي والتأمل العقلي.^(٤)

النمسا

يبدأ تاريخ النمسا مع سيطرة رودولف عليها، وانتصاره على الأمراء، وتحولت أسرة هابسبورغ منذ عام ١٢٧٣ الأقوى من أمراء ألمانيا، وحصلوا على مواقع أهم وأقوى في عهد شارل الرابع (١٣٧٤-١٣٧٨) الذي حكم ألمانيا ثلاثين عاماً مع بوهيميا وتخلصوا من آل لوكسمبورغ الذي كانوا يمثلون أقوى المنافسين لهم.^(٥) وكانت قوة آل هابسبورغ تكمن في ممتلكاتهم الواسعة، وسيطرة فكرة التوسع على أفراد هذه العائلة، خاصة شارل الخامس الذي كان يحلم بإقامة إمبراطورية كاثوليكية عالمية تحت زعامته مما أدى إلى إثارة الدول الأوروبية الأخرى ضد الإمبراطورية، إذا خرجت من الحرب ضعيفة وفاقدة لممتلكاتها وضعف سلطتها على الأمراء الألمان.

إلا إن آل هابسبورغ استطاعوا أن يحافظوا على الأراضي التي تعرف بالممتلكات الوراثية لآل هابسبورغ، وأصبحت تعرف بـ(النمسا) أكبر دولة إقطاعية ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأخذت ممتلكات آل هابسبورغ منذ القرن السابع عشر تتحول إلى دولة مركزية يعد أن ساعد الخطر، ثم أن السياسة التوسعية لملوك فرنسا ساعد آل هابسبورغ على تقوية سلطتهم، وظهرت دولة كبرى هي الإمبراطورية النمساوية.

(١) محمد محمد صالح، مصدر سابق، ص ٤٣٧.

(٢) فشر، مصدر سابق، ص ٣٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

(٤) بالمر، روبرت، تاريخ العالم الحديث، ترجمة محمود حسين الأمين، ج ١، الموصل، ١٩٦٤، ص ١٤٣.

(٥) محمد قاسم، مصدر سابق، ص ١١٤-١١٦.

واستمر التوسع النمساوي في القرنين السابع عشر والثامن عشر على حساب بولندا المجر، واستمر الصراع النمساوي العثماني للهيمنة على المجر، وكانت فرنسا تدعم العثمانيين للوقوف بوجه هيمنة آل هابسبورغ السياسية في أوروبا.^(١)

بولندا

ينتمي البولنديون إلى الصقالبة السلاف، وهم يشبهون بذلك الروس اللتوانيين والتشيكيين واليوغسلافيين، وظهروا كقبيلة تغطي الأقاليم الواقعة بين نهري الأودر والفيستولا، وظل تاريخهم غامضاً حتى أواخر القرن العاشر عندما انتحل ملكهم.^(٢)

إن ملوك بولندا المنتخبون في القرنين (١٧ و ١٨) كانوا من القدرة والحنكة إلا أنهم عجزوا عن إنشاء حكم قوي في البلاد لاتساع بولندا افتقارها إلى حدود طبيعية تسهل بناء التحصينات المنيع، ولقلة السكان وعدم القدرة على بناء جيش كافٍ للمحافظة على وحدتها من الاعتداءات الأجنبية، مما عرضها للغزوات الأجنبية ومن ثم طبيعة الملكية الانتخابية المضعف للسلطة الملكية، وانتشار الفوضى في الحكم بسبب شرعية وقانونية اعتراض أي نبيل على قانون مجلس الدييات عندما يقبل وافتقار البلاد إلى كبة وسطى مؤيدة للملك، مثل أوروبا الغربية والنزاع المستمر بين البولنديين واللوانيين والكراهية المتبادلة بينهم، والخلافات المذهبية بين الكاثوليك والبروتستانت واليهود واستفاد الملوك المنتخبين وأغلبهم من الأجانب فلا يعملون لبولندا بل لبلادهم وإحاطة لوند بجيران أقوىاء يخشون توسعها هدفهم الأساس إبقاؤها ضعيفة ومفككة تعمها الفوضى، رغبة منهم في ضم بعض ممتلكات إليهم.^(٣)

ضعف بولندا:

كانت بولندا أوسع ممالك أوروبا يومئذ باستثناء روسيا فكانت تمتد مسافات بعيدة في سهول شاسعة لا حدود طبيعية لها، أما سكانها فكانوا من مختلف العناصر واللغات، فصلادة على البولنديين (تجد الحرمان في مدن بروسيا) والروس في لتوانيا وكذلك كون اليهود شطراً عظيماً من السكان فعجت بهم المدن وصار نصف سكان بعضها منهم كان البولنديون كاثوليكين في غالب الأحيان أما الجرمان فكانوا من المذهب البروتستانتي وأما الروس فتمسكوا بالكنيسة الأغريقية، وهذه الاختلافات الدينية والعنصرية أوجدت بولندا لا حد لها وقسمت البلاد إلى طوائف وشعوب أخذ الواحد منها بخناق الآخر، وهي تقسر للناس المصاعب الجمة التي نشأت بعد الحرب العظمى عندما بدأت المحاولات لإيجاد وجمهورية بولندية مستقلة.^(٤)

وعندما نلتفت إلى الحكومة البولندية نجد أن أماننا أسوء حكومة يتصورها العقل فلم تنشأ في هذه البلاد ملكية قوية كما نشأت في جارتها (بروسيا وروسيا والنمسا) بل استمرت الدولة في حالة فوضى إقطاعية بتأثير نفوذ النبلاء والأشراف الذي حدوا من سلطة ملكهم إلى أن أصبح عاجزاً عن حفظ الأمن أو حماية البلاد من الهجمات الخارجية.^(٥)

(١) فشر، مصدر سابق، ص ٢٥٢.

(٢) مفيد الزبيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٥٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢١.

(٤) علي حيدر سليمان، تاريخ الحضارة الأوروبية، دار واسط للدراسات، بغداد، ط ١، ١٩٩٠، ص ١٤٣.

(٥) محمد قاسم، مصدر سابق، ص ١١٥.

لم تكن الملكية وراثية في بولندة، بل جرت العادة أن يتجمع النبلاء عند موت الملك القديم لينتخبوا ملكاً جديداً لهم وكان هذا من الغرباء عادةً. أما الانتخاب فكان دائماً سبب الفوضى والشغب ورأت الدول الأجنبية فيه خير وسيلة للتدخل بنشوء هذه الدولة الواسعة فصارت تتدخل في التلاعب، أما بالقوة أو بالرشوة لتحصل على منتخب يوافق مصالحها^(١).

المبحث الثاني

تقسيم بولندة الأول الأسباب والدوافع

لا حاجة إلى بعد نظر في الأمور ليرى الإنسان الواقف سنة سبعون وسبعمئة وألف الخطر المحدق بهذه المملكة ملك ضعيف شعب متنافر بلاد فقيرة وجيران أقوياء يهتمون طمعاً وشرهاً ويفتشون هائجين عن فريسة ينقضون عليها والفريسة في جانبهم.

وبينما كانت روسيا تحارب الدولة العثمانية اتفقت مع بروسيا والنمسا سنة ١٧٧٢ على تقسيم بولندة وأخذت روسيا كل الأراضي الواقعة شرقي نهر الدوناودنير وأخذت بروسيا الغربية باستثناء ميناء دانزك كما أخذت النمسا غاليسيا عدا مدينة كار كاو. وبذلك جردت بولندة من ربع أراضيها وخمس سكانها وفي سنة ١٧٩٣، قسمت بولندة من ربع أراضيها وخمس سكانها وفي سنة ١٧٩٥ بين الدول وزالت بولندة عن خارطة أوروبا.

حصلت بروسيا على مصب نهر قستولا بينما حصلت النمسا على القسم الباقي والبقية الباقية من بولندة أصبحت من حصة بروسيا.

ماتت كاترين الثانية سنة ١٧٩٦ وقد تمكنت أن تجعل من روسيا دولة عظمى بوصولها إلى بحر البلطيق والبحر الأسود وضم أوكرانيا ومعظم بولندة إلى روسيا^(٢).

وفي وقت تقسم بولندة كان حاكم روسيا القيصرية كاترين الثانية الشهيرة التي أثبتت إنها من أحزم الملكات اللاتي وردن ذكرهن في التاريخ وبعد مفاوضات طويلة بين بلين وسانت بطرسبرغ وفيينا وقعت جاهدة عام (١٧٧٢) لتقسيم الأراضي البولندية^(٣).

دوافع تقسيم بولندة:

لم يكن فردريك بمجرد انتصاره على النمسا واستيلائه على مقاطعة هامة حيوية إضافة إلى كونها من أجمل مقاطعات النمسا لأن الأجزاء الوسطى من مملكته برند نبرك وسليسيا وبوميرانيا وبقية منفصلة عن بروسيا الشرقية فصلاً كلياً لوقوع بروسيا الغربية العائدة لبولندة بين الطرفين وكانت مملكته منفصلة إلى شطرين لاتصال بينهما في الشرق بروسيا الشرقية وفي الغرب وبوميرانيا وبرندنبرك أما في الوسط فكانت تمتد أملاك بولندا الواسعة ولم يكن فردريك ممن يسكتون عن مثل هذا الوضع خاصة بعد أن شاهد ضعف بولندة وتشتت كلمتها^(٤). كانت بولندة أوسع ممالك في ذلك الوقت باستثناء روسيا وكانت تمتد مسافات بعيدة في سهول شاسعة لا حدود طبيعية لها أما سكانها فكان من مختلف العنصريات واللغات والأديان فعلاوة على البولنديين تجد الجرمان من مدن بروسيا والروس في لتوانيا وكذلك كون اليهود شطراً عظيماً من السكان فعجت بهم المدن

(١) محمد قاسم، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٩-٤٥٠.

(٣) محمد كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا، مطبعة دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، ص ١٤٦.

(٤) جفري برون، تاريخ أوروبا، ترجمة علي المرزوقي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٣١٩.

وصار نصف السكان بعضهم من المذهب البروتستانتي أما الروس فتمسكوا بالكنيسة الإغريقية هذه الاختلافات الدينية والعنصرية أوجدت لبولندا مشاكل لا حد لها فقسمت البلاد طوائف وشيعاً أخذ الواحد منها بخناق الآخر وهي تفسر لنا أيضاً سر المصاعب الجمة التي نشأت عندما بدأت المحاولات لإيجاد جمهورية بولندية مستقلة.^(١) وعندما نلقت إلى الحكومة البولندية نجد أمامنا أسوء حكومة يتصورها العقل فلم تنشأ في هذه البلاد ملكية قوية كما نشأت في جاراتها (بروسي) وروسيا (النمسا) بل استمرت الدولة في حالة فوضى إقطاعية بفضل جهود النبلاء والإشراف الذين حددوا سلطة ملكهم إلى أن يصبح عاجزاً عن حفظ الأمن عن الهجمات الخارجية^(٢). لم تكن الملكية الوراثية في بولندا بل جرت العادة أن يجتمع النبلاء عند موت الملك لينتخبوا ملكاً جديداً فكانت دائماً سبباً للفوضى والشغب وراعت الدول الأجنبية خير فيه تدخل في شئون هذه الدولة الواسعة فصار التدخل السريع باستخدام القوة والرشوة لتحصل على منتخب يوفر مصالحها كان عدد النبلاء في بولندا عظيماً جداً حتى يظن أنه بلغ المليون ونصف ولكن أكثرهم كانوا لا يملكون من المال والتراب إلا قليلاً ولم يكن هناك طبقة وسطى إلا في بعض المدن الأخرى وأما الفلاحون وكان البئوس يلزمهم كل لحظات الحياة وسقطوا إلى الدرك الأول من العبودية^(٣) فكان لسيدهم الحق في رقابهم أن شاء قتلهم وإن شاء أبقى لهم الأنفاس لا حاجة إلا بعد النظر في أمور ليرى الإنسان الواقع سنة ١٧٧٠م الخطر المحقق بهذه المملكة ملكاً ضعيف وشعب متنافر فقير وجيران أقوياء يلتهمون طمعاً وشرهاً ويفتشون هائجون عن فريسة ينقضون عليها والفريسة إلى جانبهم لذلك فلا عجب إذا انفجرت ينابيع جيوش روسيا وبروسيا في هذا الزمن الكثير كاترين الثانية الشهيرة الذي أثبتت أنها من أحزن الملكات اللاتي ورد ذكرهن في التاريخ فاتفقت مع فردريك أن لا يتركها مجالاً للإصلاح في بولندا وأن يشجع الارتباك السائد فيها وما جاء عام ١٧٧٣م إلا وكان أمراء روسيا وبروسيا والنمسا وقد انفقوا على اقتسام المملكة فكانت حصة النمسا بقعة يسكنها ثلاثة ملين من السكان والروس^(٤) وإضافة بذلك عنصرين جديدين ولغتين جدينتين إلى مجموعة العناصر اللغات المختلفة التي كانت قد جمعتها ونالت بروسيا قطعة أصغر حجماً ولكن أكثر أهمية وهي بروسيا الغربية التي كانت تشتطر أرضها شطرين مفترقين وكان سكان بروسيا الغربية من العنصر الألماني والمذهب البروتستانتي^(٥) وحصلت روسيا على الجزء الشرقي في الماهول على الإطلاق استمرت وإن الدولة الروسية والبروسية في تلاعبها بمقدرات وبث الاضطرابات فيها مدة عشرين سنة ثم أعلنتا أنه لن يعد في تلاعبها بمقدرات وبث الاضطرابات فيها مدة عشرين سنة ثم أعلنتا أنه لم يعد بإمكانها احتمال هذه الاضطرابات في البلد المجاور لما فيها لخطر عليهما فقررتا تقطيعها للمرة الثانية واشترتا بروسيا شطراً كبيراً من بولندا فإضافة مليوني ونصف المليون من البولنديون إلى رعاياها كما حصلت في مدن ودانرك وبوزك أما روسيا فقد حصلت على ثلاثة ملايين من الروس وبعد سنتين انزل الملك البولندي من عرشه مرغماً وقسمة بقايا المملكة الممزقة بين بروسيا وروسيا والنمسا^(٦) وقد حصلت روسيا من التقسيمات الثلاثة الذي محت بولندا من خارطة أوروبا إلى أيام الحرب العظمى ضعف ما حصلته بروسيا والنمسا معاً بينما كان الهون

(١) جفري برون، تاريخ أوروبا، ترجمة علي المرزوقي، ص ٣١٩.

(٢) جفري برون، مصدر سابق، ص ٣٢٠.

(٣) فشر، مصدر سابق، ص ٣٨٢.

(٤) صالح، مصدر سابق، ص ٢٣٣.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت: دار النهضة، ١٩٧٢، ص ٢١١.

(٦) فشر، مصدر سابق، ص ٣٨٥.

هنز لون في بروسيا يمدون سيطرتهم برلين إلى أجزاء ألمانيا الشمالية كان الهسبرك في الجنوب الشرقي من ألمانيا يجمعون بالفتح أو الإرث أمماً وعناصر شتى ليحكموها من عاصمتهم فينا وقد استمرت بعض الشعوب في قبضتهم إلى قد هوى بناء الإمبراطورية الشامخ على أركانه عام ١٩١٨ وكان شار الخامس قد أعطى ملك هسبرك في ألمانيا والنمسا لأخيه فريدنند الأول واحتفظ لنفسه بممتلكات أسبانيا وبرغنديه وإيطاليا أما فريدنند فقد تزوج من وارثه مملكتي بوهيميا وهنكاري فأضاف بذلك ملكاً إلى أملاكه ولكنه خسر هنكارية في تلك الأيام إذا احتلها الأتراك الفاتحون وهددوا أوروبا الوسطى مدة سنتين طوال في عام ١٣٢٦م أسس عثمان أحد قادة قبيلة الأتراك مملكة في آسيا الصغرى^(١) ودعت فيما بعد باسم وفي عام ١٣٥٣ كانت هذه المملكة قد اتسعت حتى كونت لها قاعدة في أوروبا ثم أخذت تستولي على الأراضي القسطنطينية حتى ما مضى مئة عام البزنطين تحت حوافر خيل محمد الخيل وجنوده عام (١٤٥٣) اقلق تقدم الأتراك السريع فقامت تريد الحفاظ بينهما وتدافع عنها ووقع واجب الدفاع عن البندقية والهسبرك بالدرجة الأولى فستمر القتال مدة قرنين كاملين وتقدم الجيوش الإسلام حتى صارت فينا في الربع الأخير من القرن السابع عشر وكانت تستولي عليها لولا مساعدت ملل بولندا ومنذ فشل حصار فينا صار نفوذ العثمانيون ويتقلص سريعاً فاسترجعت النمسا وهنكاري وتر النصفانيا واعترف السلطان لها بتملك هذه.^(٢)

وفي نهاية القرن السابع عشر وجد فردريك لماريا تريزا صفقة قوية جداً فاغتصابه سلسيا منها لأن هذه المقاطعة كانت تتكلم الألمانية وضياها من الهسبرك معناه تقليص نفوذهم داخل الإمبراطورية الألمانية نفسها ذلك التقليص الذي لم تستطع النمسا أن تعوض عليه بالأراضي الواسعة التي حصلت عليها من اقتسام بولندا التي كانت أكبر مساحة من سلسيا لأن سكان هذه الأراضي كان من العنصر البولندي فأضافوا بدخولهم إمبراطورية هسبرك مشكلة جديدة إلى المشاكل العنصرية التي كانت تتألم منها البلاد فبإضافة إلى العنصر الألماني الساكن في النمسا من العنصر الجيوسلوفاك الممزوج بالألماني في بوهيميا ومورافيا الهنغاري أو المجري مع الروماني وبعض العناصر الأخرى والكرواتي والسلوفاتي في الجنوب والإيطالي في ميلان وتوسكاني والفلكي والوواني في الأراضي المنخفضة ضم العنصر الآن العنصر البولوني زاد في هذا الثوب المرقع ألواناً جديدة في إدارة مجموعة هذه الأمم لمتباينة ودينها ولغتها أشكالاً وتعقيداً لذلك كانت المشكلة التي جابهت ماريا تريزا^(٣) وابنها جوزيف الثاني أعظم بكثير من المشاكل التي جابهت ملوك الإنكليز والفرنسيين لأن هؤلاء كانوا يحكمون أمماً ذات ثقافة واحدة وشعور عام بالمصلحة أما هنا فلم يكن بالإمكان توحيد الشعوب بين البولنديين والإيطاليين والمجرين والألمان وبذل أن تتحد هذه العناصر في دولة واحدة صارت تتضارب وتتنافس في ما بينها وتقوم بالثورات ضد الحكومة المركزية في فينا ولما اشتبك آل هسبرك في الحرب العظمى وتمزقت مملكة أوروبا وقامت كل أمة بمفردها وأُنزلت عن حكمها الأولين^(٤).

المبحث الثالث

تقسيم بولندا الثاني ١٧٩٣

(١) عبد العزيز سليمان نوار، التاريخ المعاصر أوروبا، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٨٨.

(٢) جفري بون، مصدر سابق، ص ٣٢٣.

(٣) نعمة، كاظم هاشم: الوجيز في تاريخ أوروبا، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٤٢.

(٤) جفري برون، مصدر سابق، ص ٣٢٤.

استمرت الدولتان الروسية والبروسية في تلاعبها بمقدرات بولندا وبث الاضطرابات فيها مدة عشرين سنة. ثم أعلنتا أنه لم يعد بإمكانها احتمال هذه الاضطرابات في البلد المجاور لما فيها من خطر عليها فقررتا تقطيعها للمرة الثانية. واجتزت بروسيا شطراً كبيراً من بولندا فأضافت مليوناً ونصف المليون من البولنديين إلى رعاياها، كما حصلت على مدن ثورن ودانزاك وبوزن أما محصول الروسية من هذه الوليمة فكان ثلاث ملايين من الروس وبعد سنتين من ذلك انزل الملك البولندي من عرشه مرغماً وقسمت بقايا المملكة الممزقة بين بروسيا وروسيا والنمسا بعد جدال مر عنيف قد حصلت روسيا من التقسيمات الثلاثة التي محت مملكة بولندا من خارطة أوروبا إلى أيام الحرب العظمى ضع ما حصلت عليه بروسيا والنمسا معاً.^(١)

وكانت كاترين وفردريك وليم قد وقعا هذا الاتفاق في ٢٣ يناير، ولكنها تكتما أمره حتى ٢٨ فبراير. أما بوتوكي فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولندا؛ فضحكوا منه، وندد به يوزف خائناً لوطنه، وتحداه للمبارزة، ولكن ستانلاس منعها. وبمقتضى هذا التقسيم الثاني حصلت روسيا على ٨٩.٠٠٠ ميل مربع من بولندا الشرقية، يعيش ٣.٠٠٠.٠٠٠ من السكان، بما هذا فلنو ومنسك؛ أما بروسيا فأخذت ٢٣.٠٠٠ ميل مربع من بولندا الغربية^(٢)، يعيش فيها ١.٠٠٠.٠٠٠ من السكان بما فيها دانترج وتورن؛ وبقي بولندا ٨٠.٠٠٠ ميل مربع و ٤.٠٠٠.٠٠٠ نسمة - وهو يقرب منة نصف ما ترك لها قبل في ١٧٧٣. ولم يكن للنمسا نصيب في هذه الغنيمة الثانية، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها في الحصول على بافاريا. أما الدول الغربية التي كانت لا تزال منهمكة في صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أي إجراء ضد هذا الاغتصاب الثاني، الذي عللته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية في وارسو، التي تهدد بالخطر جميع الملكيات.^(٣)

توقيع المعاهدات مع روسيا:

ولكي تلبس هذه السرقة شوب الشرعية أمرت بونيا توفسكي أن يدعو الديت للاجتماع في جرودنو، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه - التي بلغت ١.٥٦٦.٠٠٠ دوقاتية - قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدائنيه. وزود السفير الروسي بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت، ولم يجد عناء في رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاه. وأمكن إقناع هذا "الديت الأخير" (١٧ يونيو إلى ٢٣ نوفمبر ١٧٩٣) بأن يوقع معاهدة مع روسيا، ولكنه ظل شهوراً يأبى تصديق على التقسيم الثاني. وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مغادرة القاعة حتى يوقعوا، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتي عشرة ساعة. ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضا (٢٥ سبتمبر). وعاد ما بقي من أرض بولندا محمية روسية؛ وأعيد دستور ١٧٧٥.^(٤)

وإذا كان في استطاعة رجل واحد أن يفترق الأمة فذلك هو كوتشويسكو أمده التشارتورييسكيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير ١٧٩٣) والتمس معونة فرنسا لبلد يتعاطف في حرارة مع الثورة الفرنسية. وتعهد بأنه لو

(١) ياغي، إسماعيل، عبد الفتاح حسن أبو عليهن تاريخ أوروبا الحديث والمعاصرون الرياض، ١٩٧٩، ص ٢١١.

(٢) فشر، مصدر سابق، ص ٣٧٤.

(٣) محمد فؤاد شكر ومحمد أنيس، أوروبا في التاريخ المعاصر، مطبعة مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج ١، ط ٢، ١٩٦٢، ص ١٩٣.

(٤) محمد فؤاد شكر ومحمد أنيس، أوروبا في التاريخ المعاصر، ص ١٩٤.

مدت فرنسا يد المعونة لبولنדה لهب الفلاحون البولنديون في ثورة على القنية. وأهل المدن على النبلاء، وقال إن بونياتوفسكي سينزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا في حربها مع بروسيا.^(١)

تقسيم بولندا الثاني الأسباب والدوافع

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد إلا روسيا. ووصفه إدموند بيرك بأنه "أنبل امتياز نالته أمة في أي زمان" وصرح بأنه ستانسلاس الثاني قد تبوأ مكاناً في التاريخ بين عظماء الملوك ورجال الدولة، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج انجلترا بهزيمة كاترين. وأخفت الإمبراطورة حيناً عداها لبولنדה الجديدة، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل، ولا إحلال النفوذ الروسي محل الروسي في الشؤون البولندية. فلما أنهت معاهدة ياسي (٩ يناير ١٧٩٢) حربها مع تركيا، وتحررت من الخوف من شريكها السابقين في الجريمة - بروسيا والنمسا - لتطورهما في الحرب ضد فرنسا الثائرة (أبريل ١٧٩٢)، تفتت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنדה.^(٢)

وقد هياه لها البولنديون المحافظون، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن الدستور بونياتوفسكي قد صدق عليه ديت جمع على عجل بحيث لم يستطيع أشرف كثيرون حضوره. وكان فيلكس بوتوكي وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلي عن حق النقض المطلق الذي ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية، ولم يكونوا راغبين في النزول عن حقهم في انتخاب الملك، وفي الهيمنة عليه تبعاً لذلك. ورفض بوتوكي حلف يمين الولاء للمرسوم الجديد، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطسبرج وطلب إلى الإمبراطورة أن تساعدهم على إعادة الدستور الأقدم (دستور ١٧٧٥) الذي سبق أن تعهدت بحمايته^(٣). فأجابت بأنها لا تريد التدخل في بولنדה بناء على طلب أفراد قليلين، ولكنها ستنتظر في نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها، وأحيط فرديريك ولیم الثاني علماً بهذه المفاوضات، وكان متورطاً في الحرب ضد فرنسا، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا، فأخير الحكومة البولندية (٤ حزيران ١٧٩٢) بأنها إن كانت تنوي الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فليها ألا تتوقع الدعم من بروسيا وقف بوتوكي إلى بولنדה، وألف عام (١٧٩٢)، في بلدة بأوكرانيا، اتحاد تارجوفيك، ودعا للانضواء تحت لواء كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم. وقب أتباعه أنفسهم بالجمهوريين^(٤)، وأدانوا تحالف بولنדה مع بروسيا، وأثوا على كاترين، والتمسوا بركتها وطلبوا جيشها. فأرسلتهما جميعاً، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم. وكانت دعوتهم إلى "الحرية" قد أحدثت بعض التأثير، لأن مدناً عديدة أستقبلتهم استقبلاً للمحررين؛ وفي تريسابول في نفس العام رحب القوم ببوتوكي كأنه فعلاً ملك بولنדה الجديد. ودعا بونياتوفسكي الديت أن يعطيه كل السلطات التي تلزم للدفاع. فعينه دكتاتوراً، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية، ثم رفض وعين بونياتوفسكي ابن أخيه، الأمير يوزف بونياتوفسكي ذا التسعة والعشرين عاماً، قائداً أعلى للجيش الذي وجد مقتراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز. وأمر يوزيف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه في لوبار على نهر سلوتش، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يققوا الزحف الروسي. وتقهر الشباب إلى بولون، مركز إمداداته

(١) محمد فؤاد، مصدر سابق، ص ١٩٥.

(٢) كارلتون هيز، التاريخ الأوروبي الحديث (١٧٨٩-١٩١٤) ترجمة: فاضل حسين، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٧م، ص ٣٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

(٤) محمد قاسم، مصدر سابق، ص ٣٦٨.

تقهقراً منظماً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشيوسكو، الذي كان قد حارب من قبل في صفوف المستعمرات في أمريكا، وكان وهو في السادسة والأربعين عريقاً في أمجاد الوطنية والحرب.^(١)

ضعف القوة العسكرية البولندية والخيانة

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولندا الآن غير جيش يوزف، وكانت مؤنه وعتاده من الضالة أفواجه إلى الصباح أربعاً وعشرين ساعة، ولم تملك المدفعية غير إثني عشر صندوقاً من الذخيرة. فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوينو؛ فلما رمى بالجنين ثبت عند دوينكا (١٨ آب) واستطاع بجيشه البالغ ١٢.٥٠٠ مقاتل أن يتعادل مع ٢٨.٠٠٠ مقاتل روسي. ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التي وعد بها الملك. ولكن ستانسلاس كان قد يئس. ذلك أن رفض فردريك وليم الثاني أن ينفذ شروط الحلف البروسي البولندي، وخيانة الأمير لودفيج، وهروب المئات من الجيش الذي جمعه في براجا - كل أولئك كل فوق ما تطيقه روحه التي لم تكن يوماً ما شديدة البسالة. وعليه فقد أرسل نداءً شخصياً لكاترين يلتزم شروطاً مشرفة، وكان جوابها (٢٣ يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط الانضمام إلى إتحاد تاجوفيك وإعادة دستور ١٧٧٥.^(٢)

الانهيار التام لبولندا

أرسل السفير الروسي الجديد، ياكوف سييفرس، إلى أخته وصفاً ملؤه العطف يصور فيه بونيا توفسكي في هذه الساعة، ساعة الانهيار البدني والروحي قال: "لم يزال الملك (في عامه الستين) رجلاً وسيماً أنيقاً، وإن كان وجهه شاحباً، ولكن في وسع المرء أن يرى ستاراً قائماً قد أسدل على روحه. إنه يحسن الحديث، بل يتحدث بفصاحة، وهو مجامل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع، ومسكن سيء، وهو مهمل، مزدرى مخذول، ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً. وإذا غضضت النظر عن منصبه الرفيع، وتأملت من وجهة النظر الشخصية فقط، قلت إن فضائله ترجح ذائله. ولا ريب في أنه أسوء الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر. إنه يحب أقرباه حباً جماً، وهؤلاء الناس هم علة نكباته كلها."^(٣)

وفي ٢٤ حزيران ١٧٩٢ قرأ بونيا توفسكي الإنذار النهائي الروسي على مستشاريه الخصوصيين، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها. واحتج كثيرون منهم على هذه السذاجة. واقترح أحدهم المدعو مالا خوفسكي أن يجمع في ساعة واحدة ١٠٠.٠٠٠ جولدن لأغراض الدفاع، وألح على أن الجيش البولندي يستطيع - حتى إذا اقتضى الأمر التخلي عن وارسو - أن يتقهقر إلى كراكاو ويجند جيشاً جديداً في الجنوب الأهل بالسكان.^(٤) وهزم اقتراح بونيا توفسكي بالتسليم في المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة. ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة. ورد يوزف بأن على الملك بدلاً من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاوم إلى النهاية. فلما أصر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الإتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق في فينا. وفي ٥ أغسطس احتل جيش روسي براجاً. وفي أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعوه لاعتزال ملكه قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف. وفي نوفمبر دخل بوتوكي مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الطافر، وألقى على بونيا توفسكي درساً في واجبات الملك. ولكن انتصار بوتوكي تبين بعد قليل أنه كارثة، لأن الجنود البروسيين

(١) كالترون هيز، مصدر سابق، ص ٢١٧.

(٢) راشد، زينب عصمت، المختصر في تاريخ أوربا الحديث، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٣٢.

(٣) فشر، مصدر سابق، ص ٣٨٤.

(٤) محمد محمد صالح، مصدر سابق، ص ٢٩٥.

دخلوا بولنדה في عام ١٧٩٣، وأصلوا زحفهم ليجتلا دانتز وتورن، دون أن يطلق حلفاء بوتوكي الروس رصاصاً ليمنعوهم. ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنדה ثانية^(١).

بولنדה والتقسيم الثالث

في ٤ أبريل هاجم بأربعة آلاف نظامي وألفي فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسي في راتسلافيس قرب كرا كاو، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى^(٢). فلما سمع فريق الراكاليين أو "اليقوبيين" في وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى في تردد. وفي ١٧ أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من ٧.٥٠٠ مقاتل، وقتلوا كثيرين منهم، وهزموا فرقة بروسية من ١٦٥٠ جندي، وهربت قوات الاحتلال، وخضعت وارسو لحظة للسيطرة البولندية. وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (٢٣ أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر، واستردت أجزاء من بولنדה حتى منسك تقريباً. وفي ٧ مايو وعد كوتشوسكو الإقنان بعثقتهم، وكفل لهم تملك الأراضي التي يزرعونها. وانضوى تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له في يونيو ١٧٩٤ (١٥٠.٠٠٠) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من ٨٠.٠٠٠ على هؤلاء تدفقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو البروسية المدربة. وفي آيونيو فاجأ جيش متحالف من ٢٦.٠٠٠ مقاتل البولنديين قرب تشيكوسيني، ولم يتح لكوتشوسكو من الوقت إلا ما يجلب فيه ١٤.٠٠٠ مقاتل فقط. فهزم بخسائر فادحة، والتمس الموت فلنو؛ وفي ١٩ سبتمبر أبادت قوة روسية من ١٢.٥٠٠ من الجنود المتمرسين بالقتال بقيادة سوقوروف جيشاً بولندياً من ٥.٥٠٠ مقاتل عند تريسابول؛ وفي ١٠ أكتوبر هزم ١٣.٠٠٠ روسي كوتشوسكو نفسه وهو يقود ٧.٠٠٠ بولندي عندما سيسجويس، وجرح جرحاً خطيراً وأسر. ولم يفه كما زعمت الأسطورة بصرخة اليأس "لقد قضى على بولنדה!" ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة.

أما سوفروف فقد وحد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين الحصين في براجا، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبحون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين. وسلم بونيا توفسكي وارسو تقادياً لمذبحة أشد بشاعة. وأرسل سوفروف كوتشوسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن في سانت بطرسبرج، وأرسل الملك إلى جروندو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة، وهناك، في ٢٥ نوفمبر ١٧٩٥، وقع على اعتقاله الملك، وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولنדה، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت. وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (٢٦ يناير ١٧٩٧) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربي بودوليا وفولينيا ١٨١.٠٠٠ ميل مربع؛ وأخذت بروسيا الباقي بما فيه وارسو ٥٧.٠٠٠ ميل مربع. وفي التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو ٦.٠٠٠.٠٠٠ من سكان بولنדה البالغين ٢.٢٠٠.٠٠٠ نسمة (١٧٩٧)، والنمسا ٣.٧٠٠.٠٠٠، بروسيا ٢.٥٠٠.٠٠٠ نسمة^(٣).

فرار البولنديون من بلدهم:

وفر الآلاف البولنديون من وطنهم، وتسلم الأجانب الأملاك المصادرة، وظل بونيا توفسكي في جروندو، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته. وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له

(١) محمد محمد صالح، مصدر سابق، ص ٢٩٦.

(٢) علي حيدر سليمان، مصدر سابق، ص ١٤٤.

(٣) هدية، عبد الله، تاريخ أوربا ١٧٨٣-١٩١٧م، مكتبة أم القرى، الكويت ١٩٨٨، ص ١٦٨.

القصر الرخامي و ١٠٠.٠٠٠ دوقانية في العام، وهناك مات في ١٢ فبراير ١٧٩٨ بعد أن بلغ السادسة والسنتين. أما كوتشيسكو فقد أفرج عنه الإمبراطور بولس في ١٧٩٦.^(١)

الخاتمة

من خلال ما تقدم نستطيع الاستنتاج أن بولندا لم تكن قادرة على مقاومة روسيا وبروسيا والنمسا تلك القوى التي قسمتها مرات ثلاث (١٧٩٢ و ١٧٩٣ و ١٧٨٥ و ١٧٩٦) فيما بينها، وبهذا التقسيم لم تعد بولندا دولة لها وجود سياسي، لكنها استمرت كثقافة غنية أدباً وفناً وكشعب تواق للحرية. وكان كل البولنديين تقريباً من السلاف فيما عدا جيب ألماني في الغرب وقلّة يهودية في وارسو (فراسفا) وفي شرقي البلاد. وكان البولنديين كاثوليكياً متحمسين لأن هذه العقيدة (الكاثوليكية) كانت تؤسّسهم في أحزانهم وتعطيهم الأمل في الخلاص وتحفظ النظام الاجتماعي في ظل دولة محطمة، لذا فقد أدانوا الهرطقة واعتبروها خيانة (المقصود بالهرطقة هنا الخروج عن الكاثوليكية) فكان نزوعهم الوطني غير متسم بالتسامح ولم يكن أحد من البولنديين - خلا الذين تلقوا قسماً وافراً من التعليم - يقادر على الشعور بالتآخي مع اليهود الذين تفوقوا في مضمار التجارة والمهن، أما اليهود الفقراء الذين يحملون سمات العزلة (الجيتو) وبؤسها فكان التعاطف معهم أقل بكثير.

المصادر

- ١- إسماعيل ياغي، عبد الفتاح حسن أبو عيله، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الرياض - ١٩٧٩.
- ٢- بالمر، روبروت، تاريخ العلم الحديث، ترجمة محمود حسين الأمين، الموصل، ١٩٦٤.
- ٣- جفري برون، تاريخ أوروبا، ترجمة: علي المرزوقي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦.
- ٤- سعيد عب الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت: دار النهضة، ١٩٧٢.
- ٥- راشد، زينب عصمت، المختصر في تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٦- علي حيدر سليمان، تاريخ الحضارة الأوروبية، دار واسط للدراسات، بغداد، ط ١، ١٩٩٠.
- ٧- عبد العزيز سليمان، التاريخ المعاصر أوروبا، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٨٨.
- ٨- عبد المجيد نعني، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣-١٨٤٨م، بيروت- ١٩٨١.
- ٩- كارلتون هيز، التاريخ الأوروبي الحديث (١٧٨٩-١٩١٤) ترجمة: فاضل حسين مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٧م.
- ١٠- محمد قاسم، تاريخ أوروبا الحديث، مطبعة اللجنة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤، د.ط.
- ١١- محمد مظفر الأدهمي، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، الجامعة المستنصرية.
- ١٢- محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٢.
- ١٣- مفيد الزبيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ٢٠٠٤.
- ١٤- محمد كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا، مطبعة دار المعارف، مصر، ١٩٦٩.
- ١٥- محمد فؤاد شكر ومحمد أنيس، أوروبا التاريخ المعاصر، مطبعة مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٢.
- ١٦- نعمة، كاظم هاشم، الوجيز في تاريخ أوروبا، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٠.
- ١٧- ه.ا.ل. فشر، تاريخ أوروبا، ط ٤، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦.
- ١٨- هدية، عبد الله، تاريخ أوروبا ١٧٨٣-١٩٧١م، مكتبة أم القرى، الكويت، ١٩٨٨.
- ١٩- يحيى، جلال: العالم المعاصر، دار الكتب الجامعية، بيروت، ١٩٧٦.

(١) يحيى، جلال: العالم المعاصر، دار الكتب الجامعية، بيروت، ١٩٧٦، ص ٣٤٠-٣٤٤.